

أزمننا مع الاستشراق

د. مشتاق بشير الغزالى

كلية التربية للبنات/جامعة الكوفة

ملخص البحث

لا يخفى على المطلعين ان النتاج الاستشرافي قد ساهم في تسلط الضوء على جوانب مهمة وكثيرة من تراثنا، ورغم المأخذ على كثير من الكتابات ، الا ان هنالك كتابات كانت منصفة او قريبه من الانصاف بحق العالم الاسلامي .
وما يؤسف له ان الفكر العربي لم يؤمن له موقفاً منصفاً من الاستشراق ، اذا تعامل معه بعدائيه ورفض كل ما صدر عنه، ولقد حاولنا البحث في اسباب هذا الموقف العربي من الاستشراق ، فوصلنا الى ان المفكر العربي لم يميز بين الكتابات الاستشرافية ، وكان يتصور ان كل ما يصدر من الغرب بخصوص العالم الاسلامي هو استشراق ، وهذا في حقيقة الامر فهم خاطئ لان جزء من تلك الكتابات قد صدرت من رجال دين او ادباء او فلاسفة غربيين ليس لهم علاقة بهذا العلم .
ايضا حاولنا ان نعرف مفهومي الاستشراق والمستشرق ونحدد بدايات الكتابة الاستشرافية وماهي المؤثرات التي لعبت دور كبير على سيرها .

المدخل

ليس من الصعب على اي قارئ ان يدرك الإشكالية التي يعيشها الفكر العربي الإسلامي في نظرته و موقفه من الاستشراق ، الإشكالية التي تجلت بتضارب و اختلاف مواقف المفكرين العرب من أعمال المستشرقين عموماً، بالرغم من ان الغالب على هذه المواقف هو الرفض القاطع لكل ما صدر ويصدر عن المستشرقين من دراسات وأراء .

و كنت أقف حائراً متسائلاً عن أسباب هذا التحامل الشديد ، هل كان الاستشراق سيئاً إلى هذا الحد ؟ وهل يستحق هذا العداء من قبل رموز هامة من مفكرينا ؟ أم ان اولائك الرموز لم يقروا بعد على ماهية الاستشراق ، ولم يتمتعوا بشكل دقيق و واضح على حجم النتاج الاستشرافي وطبيعته ، وقد صدرت أحکامهم نافذة كونهم لم يطالعوا على النتاج الاستشرافي بشكل كامل ولم يتمتعوا الا على جزء يسير منه ، وبالتالي جاءت احكامهم متاثرة بما اطلعوا عليه وهو هذا الجزء البسيط من الدراسات الاستشرافية الذي غالباً ما يكون مكتوباً باقلام متحاملة ومدفعه للاساءة للإسلام .

وفي خضم هذه الحيرة وهذه التساؤلات قررت ان ابحث في رؤية الفكر العربي للاستشراق ، هل هي رؤية متطابقة ل الكامل حقيقة الاستشراق أم لا ؟

فوجدت اراءً تشكلت من دون ان يكون لأصحابها دراية كافية بضمون الدراسات الاستشرافية ، اراء فرضت على القارئ نظره غير دقيقة جعلت من الاستشراق يعمل فقط لخدمة المصالح الاستعمارية واهدافه بعد ان اخذ من دراسة التراث الشرقي وسيلة لخاربة الاسلام والتشكيل في مصادره وصرف المسلمين عن دينهم فلا تتحقق لهم بعد ذلك قوة ولا عزة بل يظلون تابعين للغرب مقلدين كل الوان الفساد والاخلال^(١) ، وهكذا يقف المفكر العربي من الاستشراق هذا الموقف ولا يتواتي بوصفه انه : "مهنة ضد الشرق و ضد الاسلام "^(٢) ، لا بل يتشدد اكثر في عَدَ النتاج الاستشرافي بأنه كان شرًّا على المجتمع الاسلامي .^(٣) وان كانت هذه الاراء تصدر عن مجموعة مهمة من مفكرينا العرب فلاشك انها مؤثرة في مجتمعاتنا



وبالتي فان هذا الموقف المتشدد ضد الاستشراق سوف لن يقتصر على هذا المفكر او ذاك ، بل سرعان ما يشيع بين القراء وابناء المجتمع ليصبح موقفاً عاماً .

ومن مقومات الإنصاف عدم الاعتراف بدقة هذه التعبير الصادرة عن نماذج من رجال الفكر والثقافة العرب المسلمين، إذ لا يمكن ان يقتصر فهمنا للاستشراق على انه لا يقدم خدماته الا للاستعمار او انه قد امتهن العداء الفكري للإسلام والشرق ، والا بماذا نصف الجهود التي أخرجت إلى النورآلاف المخطوطات الإسلامية محققة على أيدي هؤلاء المستشرقين الذين استمر عملهم لآخرتها لقرون طويلة ؟ وكيف نفهم السنوات الطويلة التي قضوها لتعلم اللغات الشرقية وضبطها ومن بينها العربية ليتم لهم بعد ذلك البحث والتحقيق في موضوعات الشرق الإسلامي ؟

ان اهم حقيقة لابد من ذكرها : هي ان لو لا جهودهم تلك لفاتها زاد علميًّا كثیر ولما استفدنا من مصادر التراث الكثيرة التي نطالعها اليوم ، وكمثال على طبيعة عمل المستشرقين وكيفية انصارفهم وانكباهم على دراسة اللغات وتراث الشرق بما في ذلك العالم الإسلامي وللوقوف على قيمة الجهود المبذولة والمنظمة نذكر ما جرى للمستشرقين الإنكليز في الهند الذين كان عليهم ان يتعلموا ويضبطوا ما يقارب الشمائة لغة ولهجة شائعة بين سكان الهند وهي لغات ولهجات ترجع في أصلها إلى اللغة الأم السنسكريتية^(٤) ، ولم يتم هذا الأمر الا بعد نحو مائة عام متواصلة من الجهد والمتابعة لكي يتمكنوا من دراسة تراث وديانة وشأن ذلك البلد الكبير فكان على المستشرق ان يضبط قواعد هذه اللغات واللهجات الكثيرة ليتمكن من دراسة تراث ذلك البلد وفنونه وديانته^(٥) ، وهذا الحال لم يكن مختلفاً عما واجهه الاستشراق في دراسة العالم الإسلامي .

الا اننا في مقابل ذلك النساء الموضوعي على جهود المستشرقين ينبغي لنا الإشارة للكتابات الغربية العديدة التي صدرت وهي مليئة بالافرءات والمزاعم والصور المشوهة لسيرة اشرف الخلق الرسول الكريم محمد بن عبد الله (ص) ولتاريخ المسلمين^(٦) ، كتابات في الأعم الأغلب أنتجهها رجال دين وموظفيين مرتبطين بخدمة المصالح الدينية أو الاستعمارية إضافة إلى بعض مفكري وادباء الغرب وخطأً قد حسبت هذه النتاجات على ذمة الاستشراق لأنها حوت الكثير من صور اليساءة للإسلام ولنبي الكريم محمد (ص) ، وعلى هذا الاساس تحمل الاستشراق مسؤولية كل ما انتج لدى الغرب مما حوى التشويه الصریح للإسلام رغم ان مفهوم الاستشراق لا يشمل كل ما ينتاج في الغرب بخصوص الاسلام .

اعتقد ان هذا الخطأ في فهم الاستشراق هو سبب رئيس في الوصول لذلك الموقف المتشنج منه ، لأن عد كل ما يصدر من الغرب عن الشرق من نتاج هو استشراق هو بحد ذاته خطأً كبيراً قد أدى بالفكر العربي الإسلامي إلى تعميم احكامه بالرفض الكامل لكل ما هو استشرافي ، ان عدم التفريق بين النتاج الاستشرافي وبين كل ما انتج لدى الغرب بخصوص الشرق جعل من الفكر العربي تصنف أي اساءه او تحامل موجه من الغرب صوب الاسلام في خانة الاستشراق ، وفي النهاية تحمل الاستشراق مسؤولية كل ما انتجه الغرب وتكون الموقف العربي الرافض لكل ما صدر ويصدر عن الاستشراق ، في حين ان معظم اليساءات الغربية للإسلام كانت باقلام رجال دين متعصبين او ادباء ومفكرين لا علاقة لهم بعلم الاستشراق ولم يطلق عليهم صفة الاستشراق الا في عالمنا العربي ، اما لدى الغرب فهم رجال دين وادباء ومفكرين وليس مستشرقين .

ان الخطأ في فهم الاستشراق وطبيعة عمله وعلى من يصح ان يطلق كان سبباً مهماً في عد كل ما صدر عن الغرب هو استشراق وبالتالي جاء رفضنا له بشكل كامل .



ما هو الاستشراق (Orientalism)

يعرف البعض الاستشراق بأنه : " علم الشرق أو علم العالم الشرقي " ^(٧) ، ويرى آخرون بأنه : " الإسلام باللغات الشرقية " ^(٨) . وكيف يكون التعريف أكثر دقةً ووضوحًا قول : إن الاستشراق هو حرفه (مهنة) تخصصية في أحدى موضوعات الشرق سواءً أكانت تتعلق بعلوم أو فنون أو تراث أو ديانة الشرق وعاداته ، وإن من يقوم بهذه الحرفة (المهنة) هو من يصح أن يصطلح عليه تسمية مستشرق .

بناءً على هذا التعريف يمكن القول بأن المستشرق هو صاحب الحرفة التخصصية في علوم أو فنون أو تراث أو ديانات الشرق وعاداته ، ولا يجوز لنا أن نعد من هو خارج عملية الاحتراف هذه مستشارًا بحجة أنه كتب بحثًا أو مقالًا عن الشرق ، لأنه غير محترف لهنة الاستشراق ، وإنما دخل هذا المجال بدافع الهواية أو خدمة المصالح الدينية المسيحية أو الاستعمارية ، ولهذا يجب التمييز بين المشتغلين في هذا الحقل الأهم ، إذ لا يجوز أن نطلق تسمية المستشرق على كل من يتناول الشرق ببحث أو مقال أو كتاب بسيط لم تسبقه دراسة وتعلم في لغات وموضوعات الشرق ونساويه بمن أفنى حياته بدراسة فمن فنون الشرق ولغاته وقدم النتاجات العلمية العديدة فعلينا هذا كمن يساوي بين صاحب حرفة الحداقة الذي يقضى حياته محترفًا (متهنًا) لصناعة الحديد ولذلك يسمى حداداً وبين من يمسك الحديد لأول مرة ، فهل يجوز أن نساوي الأول بالثاني ؟

ان عدم التمييز في إطلاقنا لتسمية المستشرق وتعريمهها على كل من يبدي برأيه في الشرق مهما كان اختصاصه ، قد أوقعنا في مشكلة الاختلاف في تحديد الموقف من هذا العلم وفي تعريفه ، فوجدنا اتجاهًا متحاملاً بشده على الاستشراق وهو الاتجاه السائد في الفكر العربي الإسلامي واتجاهًا آخرًا مؤيدًا له واتجاه ثالث يقف بين الاثنين ^(٩) ، وقد تشكلت هذه الاتجاهات في وقت ساد الاعتقاد الخاطئ بأن كل ما يصدر عن الغرب بخصوص الشرق هو استشراق ، فراح أصحاب الاتجاه الأول (المتحامل) يستدللون بكل مقال أو بحث أو كلام صادر عن الغرب لدعم تحاملهم الشديد هذا ، في حين ان أصحاب الاتجاه الثاني (المؤيدان) كانوا يبحثون عمما قدمه الغرب للشرق من فضل ليجعلوه عذرهم في هذا الموقف المؤيد وأما الاتجاه الثالث فقد بحث عن منصف للشرق فيشيده به وعن مبغض للشرق حتى يُشهر به ويحدّر من نتاجه .

وفي زحام هذه الآراء والآراء المتنازلة أضعنا التمييز بين من هو مستشرق فعلاً وبين من هو (متظاهر على الاستشراق) ^(١٠) .

أعتقد ان عملية التمييز هذه ستقودنا للوصول إلى المفهوم الصحيح للأستشراق ، وبالتالي الوقوف منه موقفاً سليم يختلف عن الموقف المتضارب المتناقض الموجود في كتاباتنا العربية الحالية ، ولن أقدم إحصاءً بحالات عدم التمييز التي وقعت ونفع بها بقدر ما سأسوق أحد الأمثلة علّها توصل الفكرة .

نموذج لأحد الأخطاء الشائعة لدينا

لقد عرف عن الإنكليزي توماس كار ليل صاحب كتاب (الأبطال وعبادة الأبطال والبطولي في التاريخ) ^(١١) بأنه من أكثر المستشرقين إنصافاً لشخصية الرسول الكريم (ص) ، ويعده بعض كتاباتنا العرب بأنه من المستشرقين المرموقين ، والحقيقة أن كار ليل على الرغم من عباراته المعتدلة بخصوص سيرة رسول الله(ص) ، إلا انه ليس مستشراً بل هو أديب وفيلسوف كان يَعد من كبار أدباء عصره ليس في إنكلترا فحسب وإنما في عموم أوروبا ^(١٢) ، وإن كتابه (الأبطال) ما هو إلا نظرية وضعها لعلاج ما كانت تمر به بريطانيا من مأزق كبير في عصر الثورة الصناعية ، فقد كانت حاجتها ماسة إلى قائد منقد



يستحثها ويثير فيها عنصر البطولة الجماعي ولذلك استخدم كارل ليل التاريخ في نظرته ليقدم حلاً نظرياً مقتراً لإنقاذ بريطانيا من أزمتها الحضارية التي فرضتها ظروف غياب مركز سلطة قوي في ظل تحولات التحديث والمكنته^(١٣).

وقد ضمّن كتابه هذا المكون من ستة فصول فصلاً عن سيرة النبي محمد (ص) اسماه (البطولة في صورة رسول: محمد بن عبد الله) وبفضل هذا الفصل اعتقدنا نحن بأنه مستشرق ، بل وضعنا بين مصاف المستشرقين ، فمن أين جاءه هذا الشخص بالاستشراق وهو لا يعرف حتى آية لغة شرقية ! وهذا الخطأ الذي وقعا فيه لا يشمل الأديب البريطاني كارل ليل فحسب وإنما هناك مفكرين وأدباء وفلسفه أوربيين وغربيين مثل فولتير وكريستيان براون وفريدرش ويوهان هيرر وفلايشر وغيرهم الكثير .

وغير هؤلاء الأدباء والمفكرين هناك فئة من رجال الدين المسيحيين والمبشرين الذين صنفوا بعض المؤلفات حول الشرق الإسلامي قمنا بوضعهم ضمن قائمة المستشرقين أيضاً بالرغم من عدم تخصصهم في مجال الدراسات الاستشرافية ولكن لكونهم قد صنفوا كتاباً حول الشرق الإسلامي ارادوا بها تشويه صورة الإسلام لدى الغرب .

الاستشراق الحقيقى

أن الخطأ الذي وقعا فيه هو تعليم مصطلح الاستشراق على فئات لا علاقة لها بهذا العلم كالأدباء والمفكرين ورجال الدين ، وبسبب هذا التعميم تعددت مواقفنا وتضاربت وظهرت اتجاهات متعددة في النظر إلى الاستشراق .

وكى نصل إلى المعنى الحقيقي له لا بد من أبعاد هذه الفئات التي أدخلناها نحن خارج هذا المجال من الدراسات ، فلا مانع من أن يتناول الأديب الغربي شخصية الرسول (ص) في أي عمل ومع هذا يبقى أدبياً في التخصص وليس مستشراً ، أو أن يتناول رجل الدين المسيحي الإسلام ومع هذا يبقى رجل دين في التخصص، في حين ينفرد بهذا المفهوم (الاستشراق) الأستاذ الغربي المتخصص بالشرق سواء أكان الشرق إسلامياً أم غير إسلامي .

وقد يقول أحدهم أن عملية التمييز هذه قد تكون صعبة مع وجود الكم الكبير من النتاج الفكري الغربي الخالص بالشرق .

وأقول مع ضعف هذا الاحتمال ، الا انه يمكن القيام بعملية التمييز هذه من خلال قراءة محتوى النتاج والتمييز بين ما هو استشرافي وبين ما هو غير ذلك ، لأن المؤلفات الخاصة بالشرق الصادرة عن مستشرقين تختلف في نقاط عدّة عن تلك المؤلفات الصادرة عن فئات غير متخصصة بهذا العلم ، ويمكن ان نجمل هذه النقاط بالآتي :

أولاً : أن المؤلفات الاستشرافية يسودها الطابع العلمي الذي يناقش ويحلل ويبحث ولا يصدر الأحكام جزافاً ، فترى فيها دراسات علمية صادرة عن أساتذة متخصصون يفتدون ما يرونه غير صحيح من آراء الغرب وفي أغلب الأحيان تراهم يبحثون عن الحقائق بروح علمية ، وهذا لا يعني أنهم حياديين تماماً إذ تظهر ميول بسيطة متأثرة بالجانب العقائدي ، ولكن مع هذا فإن مؤلفاتهم تختلف تماماً عن تلك المؤلفات غير المتخصصة التي تجد فيها المزاعم الباطلة والعبارات غير المهدبة والأحكام الهوائية المتحاملة على النبي محمد (ص) والتاريخ الإسلامي .

ثانياً : المهمجية التي يعتمدها المستشرقون هي منهجية علمية تراعي منهج البحث التاريخي في تقصي المصادر الأصلية المهمة في موضوع بحثها وتخضع الروايات الواردة فيها إلى الفحص الدقيق والتقييم قبل اعتمادها ، بينما لا تراعي تلك المؤلفات غير



المتحصصة هذا المنهج وهي تفتقر إلى أبسط قواعده ، ومن المؤكّد أن يكون هذا ديدنها في ترك المنهج البحسي الصحيح فهي لا تريد إلا الوصول إلى أهدافها الدينية أو السياسية أو غيرها من الأهداف الغير علمية الأخرى .

ثالثاً : نلاحظ دوماً أن المؤلفات الاستشرافية تستند على المصادر المهمة والرئيسية وغالباً ما تكون تلك المصادر شرقية اصيلة أو مخطوطات قديمة إضافة إلى المصادر الاستشرافية الرائدة في موضوع البحث ، بينما المؤلفات غير المتحصصة نراها تسيطر السطور تلو السطور دون أن تراجع المصادر الشرقية وكأنك تقرأ قصصاً خيالية نابعة من أفكار المؤلفين ، وهم بدون شك لا يعرفون شيئاً عن هذه المصادر ولا عن أهمية الاعتماد عليها فتراهم يُركّزون على إظهار ما يريدون ، وليس على الحقائق الموجودة فيها .

بدايات الاستشراق

والآن بعد أن تعرفنا على المفهوم الدقيق للاستشراق ، لا بد من أن نحدد البدايات الأولى لهذا النشاط الغربي الضخم الذي جعل من الشرق ميداناً لعمله ، إذ لم ينشأ الاستشراق بين ليلة وضحاها وليس هناك عام محدد يثبت تاريخ بداية هذا النشاط ، إنما هي أنشطة أوربية نشأت وتطورت وانتقلت من مرحلة إلى أخرى حتى تبلورت في أنسنة صورة فسميت بالاستشراق وقد رصدت لهذه الأنشطة المراحل التالية :

الاتصال الأوروبي الأول بالشرق الإسلامي (ثقافياً وسلامياً)

يقول المستشرق الإنكليزي برنارد لويس^(١٤) : " أن العرب وبعد أن فتحوا شمال أفريقيا ساروا بانتصارهم إلى أوروبا واستعمروا إقليمين هامين (أسبانيا وصقلية) مدة طويلة وأسسوا فيهما مدينة زاهرة أرقى بكثير من أيام مدنية معاصرة لها آنذاك في البلاد المسيحية " ، إذن المدينة العربية التي أقيمت في إسبانيا وصقلية والتي سبقت قيام الحملات الصليبية ، كانت بداية الاتصال الغربي ثقافياً بالإسلام ، ذلك أن العالمين (الشرقي المسلم والغربي المسيحي) لم يكونا بمستوى واحد من النهوض والأزدهار الفكري آنذاك ، إذ خيمت الظلال القاتمة والدياجير المظلمة على حياة الغرب خلال تلك العصور على العكس تماماً مما كان العالم الإسلامي يمر به من نهضة وازدهار ، ولذاك توجه طلاب العلم المسيحيين من بلادهم فاصدرين الأندلس الإسلامية حيث مراكز العلم لينكبوا على تعلم العربية والتلتمذ على يد المعلمين المسلمين حتى صارت العربية هدفاً لكل طالب علم أوربي وكان المسيحيون الذين تعلموا العربية يخضون بالاهتمام والتقدير بين أقرانهم^(١٥) ، وقد عبر أحد المستشرقين عن فضل وأهمية هذه اللغة آنذاك بالنسبة لهم قائلاً : " في القسم الأول من القرن السابع أتّهَبَ العرب حماسة بدين جديد وبهرهم أمل الفتاح في سبيل الله فأنقذفوا من جزيرتهم الماحلة الجدباء وانتشروا من إسبانيا إلى الهند وما وراءها ، وقد حلوا معهم لغة قدر لها أن تصبح أداة أدب عظيم لغة كان من فخارها أنها صارت الواسطة التي نقل بها أرسطو وجاليوس اللذين كانوا قد آلا إلى النسيان ، نُقلَا بما على قرون عديدة حتى استكشفا من جديد في لغتهما الأصلية "^(١٦) .

أن اتصال الغرب بعلوم المسلمين جعلهم يتعرفون على مؤلفات يونانية ورومانية قديمة لا سيما في مجال الفلسفة قام العلماء المسلمين بنقلها إلى العربية والإضافة عليها ، وبذلك عثروا على جزء مهم من حضارتهم كان العرب قد حافظوا عليه من الصياغ وهذا الأمر كان دافعاً آخرًا ومهماً لواصلتهم الاتصال والتعلم في مراكز العلم العربية .



ويبنما كان بعض طلاب الغرب يتعلمون العربية كانوا ينقلون ما تعلموه إلى اللغة اللاتينية التي لم تكن آنذاك أداة الطقوس الكنسية فحسب بل كانت أداة العلم ووسيلة التخاطب بين المثقفين في عموم أوروبا^(١٧)، وسرعان ما تأسست مراكز مهمة للترجمة من العربية إلى اللاتينية كان من أبرزها مجتمعاً للمתרגمين في مدينة طليطلة التي كانت من أكبر مراكز العلم في الأندلس الإسلامية وكان هذا الجمع قد تأسس على يد رئيس أساقفة طليطلة ريموند (RAYMUND) في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، فعهد ريموند برئاسته إلى شخص يدعى دومينيك غوندي سالفي (Gndisalvi Dominic) وأسند إليه مهمة إعداد ترجمات لاتينية لأهم الكتب العربية في الفلسفة والعلوم وكانت الطريقة المتبعة في هذا الجمع ، بل والطريقة السائدة في العصور الوسطى ، هي الاستفادة من خدمات المترجم الذي كان يضع الكلمة اللاتينية فوق الكلمة العربية التي في الأصل ، وفي آخر مرحلة يراجع كبير المתרגمين النص اللاتيني الذي كان يحمل اسم مراجعه^(١٨) ، ومن إسبانيا انتقلت حركة الترجمة هذه إلى إيطاليا حيث استمرت حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي^(١٩) .

وعلى ما يبدو أن عملية التعلم على يد المسلمين والترجمة من كتبهم كانت قد بدأت عملية فردية غير منظمة خاضعة لرغبة كل فرد وإمكاناته ورغبته في التعلم ثم تطورت إلى عملية منظمة تساهم فيها الدول الأوروبية ورجال الكنيسة ، تمثل ذلك في إرسال البعثات العلمية إلى الأندلس الإسلامية لدراسة العلوم والفنون والصناعات في معاهدها الكبرى كالبعثة الفرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث إبنة خالة لويس السادس عشر ملك فرنسا ، والبعثة الإنكليزية ترأسها الأميرة دوبان إبنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ويلز ، والبعثة الأسبانية التي جمعت الطلاب من مقاطعات سفوا والبافر وسكسونيا والرين قد بلغ عدد أفرادها سبعمائة طالب وطالبة ، وتواترت البعثات على الأندلس من إنكلترا وفرنسا وإيطاليا ومناطق أخرى من أوروبا فامتدت بكم معاهد غرناطة وشبيلية^(٢٠) .

الكنيسة المسيحية وتجيئ الفكر الغربي ضد الإسلام

لقد تمتلك الكنيسة^(٢١) بسلطة كبيرة وواسعة على الفكر والثقافة داخل المجتمع الأوروبي خلال العصور الوسطى، وكانت الكنيسة أكبر بكثير من أيّة دولة في الغرب لا تسمح بأن تتدخل قوة في شؤونها وكانت هي القاعدة على زمام التعليم والفكر يوم ذاك تضطهد كل من يخالفها في معتقداتها أشد الاضطهاد لا سيما بعد أن أصبح السلطان والسلطة لها في عموم أوروبا^(٢٢) .

فلما أقبل المسيحيون على دراسة اللغة العربية وعلوم المسلمين بشغف كبير ظهرت علامات الخوف والفزع على علماء ورجال الدين المسيحيون ويمكن ان نرصد هذا الخوف من خلال قول أحد الأساقفة لمعاصريه : "أن كثيراً من المسيحيين يقرؤون الشعر العربي والقصص العربية ويدرسون فلسفة المسلمين وفهمهم لا لدحضها بل لإتقان العربية والتعبير بها ببلاغة وعدوبة ولكنك لا تكاد تجد من يقرأ باللغة اللاتينية الكتب المقدسة أو من يدرس الإنجيل والأنباء والرسل ... أن الشباب المسيحيون الأذكياء لا يعرفون سوى اللغة العربية وآدابها ويقولون بمالاً أصواتهم على مسمع من الكل ان هذه الآداب تستحق الإعجاب "^(٢٣) .

لقد بدأ خوف الكنيسة من اهتمام أبناءها بالعربية والعلوم الإسلامية يزداد وكان هذا الخوف أولى بذرارات العداء المسيحي للإسلام ، هذا العداء الذي قدر له ان يكون عداءً تاريجياً متواصلاً غير منتهي حتى يومنا هذا ، ونتيجة لهذا الخوف



والعداء فقد تبنت الكنيسة سياسة صارمة متشددة اتخذت من محاربة الإسلام واضعافه شعاراً لها ووضعت كل إمكاناتها وطاقاتها في سبيل تحقيق هذا المهدى فقد عملت على ابقاء المواطن الأوربي جاهلاً بحقيقة الدين الإسلامي بعد ما كانت تسسيطر وتوجه كل معلومة تصل إلى أوروبا وتحكم بالحركة الفكرية في المجتمع ، وأفضل من وصف هذا الجهل المطبق على ذلك المجتمع المستشرق ساوثرن (Southern) ^(٤) عندما قال : "إذا ما نظرنا إلى الجهل المرتبط بالمكان المغلق ، هذا هو نوع الجهل لرجل في سجن يسمع الشائعات عن أحداث خارجية ويحاول أن يشكل ما يسمعه بمساعدة أفكاره السابقة ، الكتاب الغربيون قبل (١٠٠١م) كانوا في هذا الوضع بما يخص الإسلام لم يعرفوا شيئاً عن دين الإسلام كان الإسلام بالنسبة لهم واحداً من عدد كبير من الأعداء الذين يهددون الدولة المسيحية من كل اتجاه " .

ان الكتابات الاولى للغرب حول الاسلام كانت باقلام رجال الدين ويدافع الطعن بالاسلام والدفاع عن المسيحية لذلك روجوا جملة من الافكار التي تؤدي لخدمة مصالحهم بالدرجة الاولى فجعلوا من دور الإسلام هو الظهور والدعوة ضد المسيح ^(٥) ونبهوا ان للإسلام أثراً مدمرة للأخلاق يمكن ملاحظته لو وضع جنباً إلى جنب مع الأخلاق المسيحية ، وهكذا من دون ان نذكر امثلة للافكار التي كانوا يروجون لها نقول افهم قدموا صورة مشوهة للإسلام ولرسول الكريم (ص) وللقرآن ^(٦) .

هذا الموقف المتعصب قد تشكل كما أسلفنا نتيجة القلق والخوف من انتشار الإسلام في أوروبا فشعر البعض من رجال الدين ان من واجهم أن يوقظوا إخوانهم إلى الخطر الداهم وهكذا لم يكن من الصعب عليهم ان يجدوا في الإسلام ومؤسساته أثار مؤامرة مدبرة ضد المسيحية ^(٧) .

الاستشراق في العصر الحديث

و بسبب ما الصق بالشرق الإسلامي من صورة مشوهة خلال العصور الوسطى بفضل الكنيسة ورجالها ، لم يعرف الاستشراق كعلم الا في العصر الحديث بحدود القرن الثامن عشر الميلادي ^(٨) ، حيث ظهرت بعض الكتابات الاستشرافية المعتدلة نوعاً ما واخذ بعض المستشرقين يراغعون المنهج العلمي في بحوثهم ودراساتهم ، وأصبح الاستشراق أشبه بالعلم المنظم الذي يعني بإصدار المجالات الخاصة بموضوعات الشرق وتحقيق المخطوطات المهمة واستكمالاً في تنظيم هذا العلم اتفق المستشرقون على عقد أول مؤتمر للاستشراق تكون الفرصة فيه للتلاقي والتشاور والاطلاع على آخر الدراسات الاستشرافية فكان ذلك في باريس سنة ١٨٧٣م ليستمر بعدها بالانعقاد كل ثلاث سنوات حتى توقف في سنة ١٩٧٣م بعدما قرر مجموعة من المستشرقين التخلّي عن هذه التسمية (الاستشراق) بسبب النظرة السيئة التي أحاطت بهما والتهم الحادة الموجه إليها ^(٩) .

وأخيراً فإن الاستشراق علم واسع له من الإيجابيات الكثير مثلما له من السلبيات ومن الخطأ ان نعمم حكمانا على كامل النتاج الاستشرافي من خلال نتاج غير موضوعي ، ثم اننا هنا لا نريد ان ننزعه المستشرقين او ننفيهم عمما اشاعه البعض منهم من تشويه لصورة الإسلام بقدر ما نريد توضيح قضية مهمة جداً وهي : انه ليس كل ما أنتجه عند الغرب بخصوص الشرق هو استشراق الا اذا صدر النتاج من متخصص في الشرق وبالتالي قد يكون ذلك مفيداً في ان تكون نظرتنا للنتائج الاستشرافي نظرة موضوعية تتاسب وقيمة ما تطرحه تلك الدراسات من افكار واراء مهمة جداً بالنسبة لنا كشريقين ومسلمين في الوقت نفسه .



و قبل ختام البحث لابد من الاشارة الى قضية مهمة اخرى وهي ان الدراسات الاستشرافية ذات الطابع العلمي الصريح المادفة للوصول الى نتائج علمية غير مدفوعة باي اتجاه اخر قد تتوصل الى نتائج لا تتوافق مع معتقداتنا وما تؤمن به لسبب مهم ، وهو ان المستشرق الموضوعي قد يتوصل الى نتائجه من خلال الادلة المادية المتمثلة بالروايات التاريخية والتي تخضع لنهج البحث العلمي في فحصها واخضاعها للعقل والنقد في حين اننا كمسلمين نعتمد على الادلة المادية والعقلية اضافة الى الادلة الروحية ، ومن هنا قد لا يأتي التوافق في الاراء ولكن يمكن معالجة ذلك من خلال مناقشة اراء هؤلاء المستشرقين ضمن المنهج المؤثر فيهم باستخدام الادلة المادية والعقلية والابتعاد عن طرح الادلة الروحية وصولاً لتصحيح افكارهم وطروحاتهم بما ويسجم مع ما نعتقد به .

ان اتباعنا للمنهج العلمي العقلي في مواجهة طروحات المستشرقين لابد ان تثمر في تصحيح الرؤية الاستشرافية للإسلام ، اذن الخطوات التي يجب ان تتبعها لاجل تصحيح هذه الرؤية والخروج من ازمننا مع الاستشراق تتلخص بالتالي :

الاولاً: التفريق بين ما هو استشرافي وبين ما هو غير استشرافي وقد بيان ذلك ضمن البحث .

ثانياً: الاطلاع الكامل على طروحات المستشرقين والوقوف على اهم ارائهم بما يخص العالم الاسلامي .

ثالثاً: مناقشة هذه الاراء بمنهج علمي وبطرح عقلي يكون مؤثر ومحبوب لدى الآخر وبالتالي سينعكس ذلك على تصحيح صورة الاسلام لدى الغرب .

تم بفضلة وتوفيقه



المواضيع

- ١) عبد المنعم محمد حسنين ، الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشویش على دعوته ، مجلة الجامعة الإسلامية ، (المدينة المنورة - ١٩٧٧) ، العدد الثاني ، ص ٨٠ .
- ٢) حسين المراوي ، المستشرقون والإسلام ، (القاهرة - ١٩٣٦) ، ص ٧٩ .
- ٣) مالك بن نبي ، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، (القاهرة - ١٩٧٠) ، ص ٧٠ .
- ٤) السننكريتية هي (اللغة الأم لسلالة اللغات العديدة في الهند ، وكانت هذه اللغة قد انقرضت منذ زمن بعيد كأدلة للتعبير في الحياة اليومية ، وهي تشابه في وضعها هذا اليونانية واللاتينية في أوروبا ، ومع انقراضها من الاستخدام العام ، فمن المستحيل ان يبني علم لغوي صحيح بلغات الهند قبل الشروع بدراسة جدية علمية) ينظر : Arberry, A.J, British Orientalists , (London - ١٩٤٦) , PP. ٢٨-٣٠ .
- ٥) Ibid , P.٢٨ .
- ٦) للتفصيل عن هذه الافتراضات والمزاعم ينظر : Norman Daniel , Islam and the west the making of a lame , (Edinburgh - ١٩٦٠) , R.W.Southern , Western views of Islam in the middle ages , (Harvard - ١٩٦٢) .
- ٧) رودي بارت ، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، (القاهرة - ١٩٦٧) ، ص ١١ .
- ٨) The Compact of the Oxford English dictionary , (Newyork - ١٩٧١) , Vol . ١, ٢٠٠٩ .
- ٩) للتفصيل أكثر عن هذه الاتجاهات ينظر : مشتاق بشير الغرالي رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد ، ٢٠٠١ ، ص ص ١٢ - ١٩ .
- ١٠) المقصود هنا (الشخص غير المتخصص بالاستشراق ويقدم نتاجاً خاصاً بالشرق) .
- ١١) توماس كارليل ، الأبطال ، ترجمة محمد السباعي ، (بيروت - ١٩٧٩) .
- ١٢) ينظر : محمد عبد الحسين الدعمي ، المتغير الغربي : الشرق الاستشراق ، (بغداد - ١٩٨٦) ، ص ص ٢٧ - ٣٠ .
- ١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .
- ١٤) برنارد لويس ، تاريخ اهتمام الإنكليز بالعلوم العربية ، ط ٢ ، (بيروت - لا . ت) ، ص ٣ - ٤ .
- ١٥) المصدر نفسه ، ص ٤ .
- ١٦) Arberry , British Orientalists , p . ١٢٠.
- ١٧) أوليري دي لاسي ، الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، ترجمة إسماعيل البيطار ، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت - ١٩٧٢) ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .
- ١٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .
- ١٩) محمد كامل عياد ، "صفحات من تاريخ الاستشراق" بحث منشور في مجلة الجمع العلمي العربي السوري ، (سوريا - ١٩٦٥) ، مج ٤٠ ، ج ١ ، ص ١٦٦ .



٢٠) علي حسني الخربوطلي ، المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٤ ، (القاهرة - ١٩٨٨) ، ص ٢٩ .

٢١) كان نشوء الكنيسة المسيحية في الأيام الأخيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن امتدت رسالة المسيح (عليه السلام) إلى أوروبا اصدمت بالمعتقد الروماني القديم "المعتقد الوثني" ، فقامت بعد ذلك المسيحية التي قاست ألم الاضطهاد حيناً من الزمن ، وتمكنت في أوائل القرن الرابع الميلادي من ضم الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية فانتشرت في عموم أوروبا . ينظر : علي حيدر سليمان ، تاريخ الحضارة الأوروبية ، دار واسط ، (بغداد - ١٩٩٠) ، ص ٢٥ .

٢٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص ص ٢٤ - ٢٨ .

٢٣) لمزيد من التفاصيل ينظر : إسحاق موسى الحسيني ، الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه ، (بيروت - ١٩٦٧) ، ص ٣ ; كذلك : كراتشوفسكي ، دراسات في تاريخ الأدب العربي ، ط ٢ ، (موسكو - ١٩٦٥) ، ص ٥٩ .

٢٤) Southern , Western views of Islam , P. ١٤ .

٢٥) Ibid , P. ٢٢.

٢٦) Ibid, P. ٢٥ .

٢٧) ينظر : محمد فتح الله الزبادي ، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها ، (طرابلس - ١٩٨٣) ، ص ٦٨ - ٦٩ .

٢٨) محمد آركون وآخرون ، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه ، ترجمة هاشم صالح ، (بيروت - ١٩٩٤) ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .



قائمة المصادر

اولاً: المصادر العربية والترجمة:

- ١- أركون وآخرون ، محمد الاستشراق بين دعاته ومعارضيه ، ترجمة هاشم صالح،(بيروت — ١٩٩٤)
- ٢- بارت ، رودي الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، (القاهرة — ١٩٦٧) .
- ٣- حسنين ، عبد المنعم محمد الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشویش على دعوته ، مجلة الجامعة الإسلامية ، (المدنية المنورة — ١٩٧٧) ، العدد الثاني .
- ٤- الحسيني ، إسحاق موسى الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه ، (بيروت — ١٩٦٧) .
- ٥- الخرباطي ، علي حسني المستشركون والتاريخ الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢ ، (القاهرة— ١٩٨٨) .
- ٦- الدعمي، محمد عبدالحسين التغير الغربي: الشرق الاستشراق، (بغداد - ١٩٨٦).
- ٧- الزيداوي ، محمد فتح الله ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها ، (ليبيا — ١٩٨٣) .
- ٨- سليمان ، علي حيدر تاريخ الحضارة الأوروبية ، دار واسط ، (بغداد — ١٩٩٠) .
- ٩- عياد ، محمد كامل "صفحات من تاريخ الاستشراق" بحث منشور في مجلة الجمع العربي السوري ، (سوريا — ١٩٦٥) ، المجلد ٤٠ ، الجزء ١٠.
- ١٠- الغزالى، مشتاق بشير تطور الاستشراق бритاني في كتابة السيرة النبوية الشريفة ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لكلية التربية (ابن رشد)جامعة بغداد، ٢٠٠١ .
- ١١- كارليل، توماس الابطال، ترجمة محمد السباعي، (بيروت - ١٩٧٩)
- ١٢- كراتشوفسكي دراسات في تاريخ الأدب العربي، ط ٢ ، (موسكو- ١٩٦٥)
- ١٣- لاسي، اوليри دي الفكر العربي ومرطبه في التاريخ، ترجمة اسماعيل البيطار، دار الكتاب اللبناني ،(بيروت - ١٩٧٢)
- ١٤- لويس، برنارد



تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية، ط ٢ ، (بيروت - لا.ت)

١٥ - بن نبي ، مالك

أنتاج المستشرقين وآثره في الفكر الإسلامي الحديث ، (القاهرة - ١٩٧٠) .

١٦ - الهراوي، حسين

المستشرقون والاسلام، (القاهرة - ١٩٣٦) .

ثانياً: المصادر الأجنبية:

Arberry , A . J .

١- British Orient lists , (London - ١٩٤٦) .

Daniel , Norman-

٢- Islam and the West the making of an Limage , (Edinburgh - ١٩٦٠)

٣- The Compact of the Oxford English dictionary , (newyork _ ١٩٧١)

Southern , R. W .

٤- Western views of Islam in the middle ages , (Harvared - ١٩٦٢)